تاريخ من العداء والدماء

أشهر الإمارات الكردية التي قاومت الاحتلال العثماني

تاريخ الأكراد في ظل الدولة العثمانية تاريخ ملىء بالمآسي، لذا ورثت الجمهورية التركية عبء هذا التاريخ، في الوقت الذي لـم ينس فيه الأكراد وقائعه ذوات المآسي.

وأكثر مأســاة عانــى منها الأكــراد؛ أنهم شــعروا بأن أراضيهم تمثل إمــارات حدود فاصلة بين قوتين عثمانيــة وصفوية تنازعتــا أراضيهم، وكانــوا وقودًا لهمــا. وأصبحت الأراضــي الكردية منطقة عبــور والتقــاء بين جيــوش الصفويين والعثمانيين، وكم كانت كردستان مسرحًا لمعارك عديدة بينهما، تكبدت خلالها كردســتان الخســائر الجمة على المستويين البشري والاقتصادي.

> تلقت كردستان ضربات اقتصادية وبشرية؛ نظرًا لموقعها الجغرافي، ووقوعها بين قوتين متجبرتين.

ومع مرور الزمان وتبدل الأحوال لم يحترم الســلاطين العثمانيون حالة الاســتقلال الذاتي التي تمتعــت بها الإمارات الكرديــة؛ إذ بدأ الصدام بيــن العثمانيين والكُرد منذ عصــر مراد الرابع. وانتهكت الجيوش العثمانية الوضــع الخاص لهذه الإمارات، وهنا نرى الكثير من التضارب في الآراء حــول هذا الأمر بين المصادر الكردية والمصــادر العثمانية؛ إذ نظرت المصادر الكردية إلى ذلك على أنه بمنزلة مذبحــة للكُرد، بينما وصفت المصادر العثمانية ذلك الأمــر على أنه كان بمنزلة حملات تأديبية للأمراء الكُرد، وإخضاع كل الولايات إلى ســلطة الدولة المركزية. ويزداد الأمر سوءًا في القرن التاســع عشــر مع ضعف الدولة العثمانية، وأزماتها الاقتصادية، وهزائمها فــي حروبها الخارجية، وســقوط بعض ولاياتها في أيــدي أعدائها، من هنا تتخلى الدولة العثمانية عن سياســة اللامركزية التي اتسمت بها الإدارة العثمانية لفترات طويلة، وتتبنى الدولة سياسة المركزية، مما يعني الصدام المباشــر مع رعاياها. يُضاف إلى ذلك أن هذا القرن كان يعــد عصر القوميات، من هنا حدث الصدام الكبيــر بين القوميــة التركيــة والقومية الكرديــة، مثلما حدث من صــدام بين القوميــة التركية والقوميات الأخرى الأرمينية والعربية ومن قبلهما اليونانية.

وتشــير بعض الدراســات التي أقيمت على وثائق الأرشــيف العثماني إلى شكاوى الكُرد من تجاوزات الإدارة العثمانية، ولا ســيما أن الكُرد في البداية اســتمروا في ولائهم للسلطان العثماني، خوفًا من وقوعهم في أيدي الصفويين.

وفي دراســته عن الكُرد والعشــائر الكردية في الأرشــيف العثماني، يرصد محمد علي أحمد شكاوى أهالي قضاء ســروج من تصرفات الجيش العثماني؛ إذ يعرض لوثيقة تعود إلى عام (1845) توضح أن الجيش العثماني أخذ قرارًا بتأديب أهالي ســروج لرفضهم إرســال الرجال للمشــاركة في الحملة العثمانية على منطقة عربستان.

كما يعرض المؤلف لوثيقة أخرى تعود إلى عام (1898) تتحدث عن العصيان المســلح الذي قام به أهالي ســروج وما حولها ضــد مفرزة الجندية. كما يرصد المؤلف عمليات التهجير القســري للعشــائر الكردية، الذي بدأ منذ الربع الأخير من القرن الثامن عشر، واستمر في القرن التاسع عشر. ومن هذه العمليات تهجير عشــائر كردية من مناطق سكنها شمال شرق سوريا وجنوب شرق تركيا الحالية إلى أماكن النفي التي حددها البــاب العالي. ويعرض المؤلف لوثيقة توضح تهجير الكُرد من منطقة مرعش إلى منطقة الرقة وما حولها.

ولم يقتصر الأمر على عمليات التهجير فحسب، وإنما شمل الصدام بين العثمانيين والكُرد على ســقوط الإمارات الكردية التي كانت تتمتع بنوعٍ من الاســتقلال الذاتي، وسنعرض لبعض أمثلة على سقوط هذه الإمارات.

إمـــارة سوران:

يفســر البعض اســم ســوران بأنه يعود إلى اســم أحد اللهجات الكردية الرئيسة، وتُسمى اللهجة الســورانية. وكانت إمارة ســوران من أهم الإمارات الكرديــة؛ إذ كانت تضم الموصل وكركــوك وأربيل. ويقال إن هذه الإمارات كانت تتميز بلونٍ من التســامح والانفتاح إلى درجة السماح أن تحكمها امرأة.

وكما أشــرنا من قبل، فقد تخلــى العثمانيون عن سياســة اللامركزية، وانتهجوا سياســة المركزية، من هنا تحرك الجيش العثماني إلى إمارة ســوران، حيث شن هجومًا شرسًا عليها. ولعبت ماكينة الدعاية العثمانية على وتر الدين، وخاصةً أن أغلبية سكان الإمارة من السُنة؛ إذ استمال العثمانيون بعض العلماء الكُرد إلى جانبهم، وأصدر هؤلاء العلماء فتوى للأهالي الكُرد تُحَرِّم محاربة جيش الســلطان، لأنه جيش الخليفة ولــيِّ الأمر. ويقال إن هذه الفتوى لعبت دورًا مهمًّا في هزيمة الإمارة وسقوطها.

إمـــارة بوتان:

إمــارة بوتان من الإمارات الكردية المهمة، وتركزت الإمارة في منطقة جزيرة بوتان في جنوب شــرق الأناضول، ومعظم سكانها من المسلمين السُــنة. وفي العصر العثماني -كما أشرنا من قبل- أصبحت إمارة بوتــان إمارة وراثية تتمتع بالحكم الذاتي مع التبعية للباب العالي.

ويصف قبــات الجافي إمــارة بوتان بأنها جوهرة الإمــارات الكرديــة، وتتميز إمارة بوتان بطول فترتهــا التاريخية، كما كانت آخــر إمــارة كرديــة تســقط فــي أيدي العثمانيين، حتى شــبهها البعض بإمارة غرناطة» كونهــا آخر إمارة ســقطت في أيدي الإسبان في الأندلس.

> إمارة بوتان كانت تطمح لتكرار التجربة الخديوية في مصر.

وتحدثنا المصادر عن أحد أهم أمراء بوتان وهو الأمير بدرخان باشا، هذا الأمير الإصلاحي الذي أُعجب كثيرًا بتجربة محمد عليّ فــي مصر، وأراد الاقتداء به والقيام بإصلاحات كبيرة في إمارة بوتان. كما عمل بدرخان على بلورة مشــروع سياســي كردي لمســتقبل الإمارة، لكن مشروعه هذا اصطدم بسياســة المركزية العثمانية. ومع ذلك استمر بدرخان في مشروعه الإصلاحي متأسيًا بتجربة محمد علي؛ حيث حرص على بناء جيش قوي، وأنشــأ في بوتان مصنعًا للذخيرة، كما اهتم بتشجيع التعليم في الإمارة، بل أرسل بعثات من طلابه إلى أوربا.

وحدث الصدام المتوقع بينه وبين الســلطان العثماني، عندما رفض أن يشــارك في حروب الســلطان الخارجية. وهنا وقعت الواقعة بينه وبين جيش الســلطان، ولم يســتطع الاستمرار في المقاومة، واضطر أخيرًا إلى الاستسلام.

وفي البداية تم إرســال أمير بدرخان أســيرًا إلى إسطنبول، وهناك أمر الســلطان بنفيه هو وأســرته إلى جزيرة قبرص. وتفرق شــمل آل بدرخان في العديد من الدول، وصل بعضهم إلى مصر ومن نســلهم أحد أشهر المخرجين المصريين "أحمد بدرخان"، وأيضًا ابنه "علي بدرخان".

فنجيــرت الدولــة العثمانية على الإمارات الكردية، ونســجت تاريخًا من صراعٍ بين سياســة اللامركزية وسياســة المركزية، هذه السياســة الأخيرة التي لم تنجح في إبقــاء الدولة العثمانية، بل ساهمت في صراع القوميات في الدولة العثمانية.

المراجع:

1) عيسى إبراهيم قاسم: الميران في إمارة بوتان، دراسة تاريخية.
2) قبات شيخ نواف الجافي: إمارة بوطان.
3) محمد زكي البرواري: الكورد والدولة العثمانية.
4) محمد عليّ أحمد: الكرد والعشائر الكردية في الأرشيف العثماني.